التعليم الإسلامي ومؤثراته على مجتمعات جنوب الصحراء الكبرى حتى أواخر القرن التاسع عشر

د. عبد المولى علي محمد عمار ـ كلية الآداب الزاوية ـ جامعة الزاوية

المقدمة :

تميزت مناطق أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بتمسكها بالثقافة العربية الإسلامية ، وقد كان التعليم الإسلامي الركن القوي في تكوين هذه الثقافة ، وتعزيز ونشر الإسلام بين السكان المحلين ، إن عملية الانصهار الفكري الذي تعرضت له هذه المناطق على يد التعليم والثقافة العربية الإسلامية جعلها من أهم مراكز هذه الثقافة حتى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد .

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها :

تهتم مشكلة هذه الدراسة بالبحث عن بعض المشاكل والعراقيل التي واجهت العملية التعليمية الإسلامية بمناطق جنوب الصحراء الكبرى .

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما هي الطرق التي تم من خلالها نشر التعليم الإسلامي بالمنطقة ؟ وما هي مؤسساته ومراكزه ؟ .

أهمية الدراسة :

ترجع أهمية هذه الدراسة إلى كونها تحاول متابعة أهم ركائز البناء الفكري (التعليم) للمجتمعات الأفريقية المسلمة ودراسة العوامل المؤثرة فيها .

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز وبيان دور التعليم والتعلم في ثقافة وحياة المجتمعات الأفريقية .

منهج الدراسة :

اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي ليتمكن من تحقيق الغاية والهدف من دراسته .

محاور الدراسة :

المحور الأول : نظم التعليم ومؤسساته .

المحور الثاني : المراحل التعليمية ومناهجها الدراسية .

المحور الثالث : لغة التدريس والإجازات العلمية .

المحور الأول ـ نظم التعليم ومؤسساته :

الإسلام يُلزم كل مسلم بمعرفة شيء من القرآن الكريم بقدر ما تستقيم به العبادة، الأمر الذي أدى إلى فتح باب تعلم القراءة والكتابة باللغة العربية، واتخذ الأمراء والتجار وحفظة القرآن الكريم والفقهاء العلماء مربين لأبنائهم، كما أسند إليهم الحكام مناصب الإمامة والقضاء والتدريس وتعينهم كتبة في الدواوين، فأصبح كل من يتطلع إلى المكانة الرفيعة أو تولي منصب عال يطلب العلم ويتفقه في الدين ويتعلم اللغة العربية ؛ لأنها كانت لغة العلم المعتمدة في كافة الشؤون الإدارية في المنطقة، هذه اللغة استطاعت أن تفرض نفسها كلغة وحيدة، وأصبحت اللغة الأكثر انتظاماً واستعمالاً، وغدت إلى جانب الدين المظهر الأساسي لوحدة المجتمع الافريقي [1].

من هنا صار التعليم ضرورة في البلاد الأفريقية المسلمة، وشهد حركةً نشطةً وعملاً جاداً بعد الخمول الذي أصابه في بعض الفترات، نتيجة الاضطرابات في هذه البلاد بين فترة وأخرى، فشهدت المنطقة نظاماً تعليمياً على غرار نظم التعليم التي كانت سائدة في بلاد المشرق والمغرب الإسلاميين ، حيث أُنشئت دور التعليم وتعددت، وكان في مقدمتها المساجد والكتاتيب والزوايا ومنازل العلماء وقصور الحكام، ومثلت المساجد أهم هذه الدور، كونها مكاناً للعبادة ومركزاً للإشعاع الفكري عند المسلمين ومنارة للدعوة الإسلامية، اتبع فيها العلماء طريقة السلف في الوعظ والإرشاد، يُذكِّرون بكتاب الله، ويقومون بشرحه وإجلاء العبر منه، وبالصحيح من السنة، يوضحونه وينشرونه، وسيرة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - العملية والقولية، ثم سيرة الصحابة وهديهم، ولذلك كانت من أهم ركائز الإحياء الإسلامي بالمنطقة، يتلقى فيها الصغار والكبار تعليمهم في المراحل التعليمية المختلفة [2].

وكانت من المراكز المهمة للتعليم الإسلامي الكتاتيب : وهي عبارة عن حجرة أو حجرتين مجاورة للمسجد أو بعيدة عنه، أو غرفة في منزل، يبنيها صاحبها احتساباً الله وطلباً لأجر الآخرة، كما قد يبنيها المعلم أو يؤجرها من مالكها ليعلم فيها بأجرة يتقاضاها من أولياء التلاميذ، وكان أثاثها عبارة عن حصر مصنوعة من الحلفا وكمية من الصلصال والصمغ وجرار ماء وبعض الأواني البسيطة ومجموعة من المصاحف والألواح، وبعض الكتب الفقهية والنحوية والسير، والتعليم بالكتاتيب تعليم أولي، ومنه ينتقل التلاميذ إلى المساجد والزوايا لاستكمال تعليمهم .

ومن مراكز التعليم البارزة بالمنطقة، الزوايا التي كان فيها المتصوفة يتلقون علومهم الروحية، ومن خلالها يمارسون طقوسهم التعبدية، وفيها ينالون نفحاتهم

الربانية، ومنها ينطلقون في القيام بأعمالهم الخيرية، والزوايا في الأصل ركن بناء، ثم تطورت إلى بناء أو مجموعة من الأبنية ذات طابع ديني فيها غرفة للصلاة بها محراب وضريح لأحد الأولياء تعلوه قبة، وغرفة قصرت على تلاوة القرآن، ومدرسة لتحفيظ القرآن، ثم غرف مخصصة لضيوف الزوايا، أو للحجاج والمسافرين والطلبة ويقوم شيوخها بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال، ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها لما وجد أثر للغة العربية، ولا للعلوم الدينية، وقد اشتهرت بعض الزوايا بالمستوى الرفيع للتعليم الذي تقدمه، فكانت مراكز دينية وثقافية ومدارس للصغار والكبار [3].

لقد كانت هذه الزوايا روافد تزود الجامعات الإسلامية في الغرب والشرق بالطلبة، الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب، والجامع الأزهر بمصر، فيتخرجون منها طلبة مجازون، أي أساتذة، وعند عودتهم لبلادهم ينشرون فيها ما تعلموه من شرائع الإسلام والغيرة الوطنية [4].

إلى جانب هذه المراكز العامة كانت هناك أماكن أخرى لتعليم الرعية وتثقيفهم، منها : منازل العلماء وقصور الحكام والأمراء والتجار وعالية القوم وبعض منازل عامة الناس .

المحور الثاني : المراحل التعليمية ومناهجها الدراسية .

لعبت المؤسسات التعليمية في منطقة جنوب الصحراء الكبرى دوراً رئيسياً في إثراء الحياة الفكرية، ونشر العلم وتشجيع طلابه لتحقيق عدة أهداف منها :

1- تصحيح العقيدة الإسلامية وترسيخها بالمنطقة .
2- إحياء الثقافة العربية الإسلامية ونشرها بالبلاد .
3- نشر التصوف وأوراده وتعزيز دوره بالمجتمع .
4- مقاومة الفرنسة وثقافتها [5].

وكان للتعليم ثلاث مراحل هي :

أولاً ـ المرحلة الأساسية :

تدرس في المساجد والكتاتيب، ويتم فيها تدريس القراءة والكتابة، وعادة ما تضم صغار السن من الخامسة وحتى سن الصبا. وبعد إتقان التلميذ القراءة والكتابة يشرع في حفظ القرآن الكريم .

وقد كانت طريقة التعلم في هذه المرحلة تتم عبر ثلاثة طرق متتالية هي :

أ- **وصف الحرف** : أي تمييز صوته وشكله بطريقة التكرار الصوتي والكتابي .

ب- **قراءة الأحرف** : بمعنى قراءة الحرف بالحركات مثلاً : ب .

ج- **الجمع أو التوالي في قراءة الحروف** : والمقصود بها قراءة الكلمة تامة .

وكانت هذه الطريقة تستعمل أيضاً في تعلم القرآن الكريم، حيث تستخدم الألواح في تعلم السور القصيرة وفي السور الطويلة في المصحف [6]، وقد نجم عن ذلك تعلم اللغة العربية بشكل غير مقصود .

بعد أن يجيد التلميذ القراءة والكتابة يتبع المعلم عدة أساليب لفهم الدروس وحفظها، كان منها :

أ- أسلوب التلقين : حيث يقوم المعلم بتكرار الدرس على تلاميذه حتى يتأكد من فهمهم وحفظهم له، سواء كان ذلك عن اللوح أم على ظهر قلب .

ب- أسلوب الكتابة : على اللوح من قبل المعلم أو أحد التلاميذ الكبار، الفاهم للقراءة والكتابة والإملاء .

ج- أسلوب العرض : وهو أن يقرأ التلاميذ على المعلم ما حفظوه من القرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهرة عن ظهر قلب، أو من لوح ويتابعه المعلم معتمداً على حفظه أو مقابلاً على أصل الكتاب الذي يقرأ منه التلميذ

وكان المعلم يلزم نفسه إعادة المحاولة في تعليم الأطفال بما تسعه عقولهم وتدركه أفهامهم؛ لأن الله جعل في الألفاظ والأدلة سعة، وسرعة الفهم والحفظ متفاوتة من طفل إلى آخر، فكلٌ يخاطب على قدر فهمه وإدراكه [7].

ثانياً- المرحلة المتوسطة :

تكون عادة في المساجد والزوايا وفي بعض الأحيان تتم في منازل العلماء وقصور الحكام والأمراء، ولم يكن الالتحاق بهذه المرحلة محدداً بسن معينة، بل كان مسموحاً لجميع الذين انجزوا تعليمهم الأساسي بنجاح، وكانت المواد الأساسية تشتمل على النحو واللغة والحديث والفقه والتفسير والتجويد والمنطق والحساب، وكان الطالب يتدرج هذه المرحلة من دراسة المؤلفات البسيطة إلى دراسة المؤلفات المفصلة مع شروحها وحواشيها [8].

ثالثاً- المرحلة المتقدمة :

يتم أغلبها في المساجد والزوايا وفي حلقات دراسية، وقد احتوى المنهج مواداً تدرس في شكل اختصاص، وتتناول بتفصيلات واسعة، وتناقش المسائل التي فيها مستوى أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون وقتئذ، وقد ضمت كتاب الشفاء في الحديث للقاضي عياض (ت:544هـ /1149م)، ومدونة الإمام سحنون (ت:

256هـ/780م) والرسالة لابن أبي يزيد القيرواني، ومختصر خليل بن إسحاق (ت: 818هـ/1415م)، والموطأ للإمام مالك 178هـ/790م)، وألفية ابن مالك في النحو، والصحيحان للإمامين البخاري (ت: 256هـ/890م) ومسلم (ت: 261هـ/875م)، وسيرة ابن هشام (ت: 213هـ/828م) وسيرة ابن إسحاق 152هـ/768م) [9].

لغة التدريس والإجازات العلمية :

كانت لغة التدريس هي العربية، وهي اللغة الرسمية في البلاد المسلمة جنوب الصحراء، علاوة على أن هذه اللغة كثيراً ما كانت لغة التفاهم والتخاطب في الأسواق والحياة العامة.

أما الإجازات العلمية فكانت تُعطي للطلاب بعد الانتهاء من العلوم التي يدرسها الطالب على يد أحد العلماء أو بعض العلماء في دور العلم المختلفة، حيث يجاز للطالب أن يدرس في حلقة أساتذته، أو في حلقة خاصة به، والاحتفال بالنجاح وتسليم الإجازة أو بحفظ القرآن الكريم يحضره أعيان البلدة والأصدقاء والزملاء وبعض العامة، حيث تقام وليمة كبرى بهذه المناسبة العلمية الجليلة [10].

وهكذا في ظل الإسلام وثقافته عادت للعلوم الإسلامية مكانتها الرفيعة وأقبل الناس على دراستها ومعرفة أصولها وأحكامها، وتنافسوا على تعلم القراءة والكتابة باللغة العربية لغة القرآن الكريم، وعادت المساجد والكتاتيب والزوايا تقوم من جديد بدورها الدعوي والفكري بين المسلمين ومن جاورهم من الأقوام والأمم، الأمر الذي نجم عنه توسع الثقافة العربية الإسلامية وترسيخها بالمنطقة بعد عقود أُجحف فيها الإسلام وخُنقت ثقافته .

الخاتمة :

من خلال دراسة موضوع البحث يمكن استخلاص عدة نتائج أهمها :

1- إن الإسلام ألزم المسلمين بالتعليم ونشره .
2- كان للعلماء والمتعلمين مكانة عالية في المجتمعات الأفريقية المسلمة .
3- كانت نظم التعليم ومناهجها ومراحلها بالمنطقة مطابقة لنظيراتها في البقاع الإسلامية الأخرى .
4- قامت المساجد والكتاتيب والزوايا بدور أساسي لعملية التعليم الإسلامي بالمنطقة .
5- هدف التعلم عند الأفارقة إلى نشر وترسيخ الثقافة الإسلامية ومقاومة الفرنسية .

6- كان التعليم يتم باللغة العربية، ما ساهم في نشرها بين الأفارقة .

هوامش البحث :

(1) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت ، د.ت، ص571-572.

(2) إبراهيم بيوض : المجتمع المسجدي، الطبعة العربية ، الجزائر ، 1989، ص11 وما بعدها

(3) محمد نسيب : زوايا العلم والقرآن، دار الفكر ، الجزائر، ب.ت، ص83.

(4) رأفت عيسى الشيخ : أفريقيا في التاريخ المعاصر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1991م، ص353.

(5) عملت السلطات الفرنسية التي أخذت تمد نفوذها بغرب ووسط افريقيا على محاربة الإسلام وثقافته من خلال إنشاء مدارس فرنسية مهمتها فرنسة المنطقة من خلال نشر الثقافة الأوروبية بالمنطقة على حساب الثقافة العربية الإسلامية .

(6) Fafunwa. A: A history of Educaton in Nigeria. London. 1979. Pp222-223.

(7) يتبين من طريقة التعليم هذه إدراك علماء الإسلام منذ وقت مبكر لأهمية معرفة الفروقات الذهنية عند الأطفال ما ساعدهم في النجاح في المهام الموكلة إليهم .

(8) عبد القادر زيادة : " حركة التعليم في تمبكتو "، مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد الرابع عشر، 1980، ص214-216.

(9) سعدي زونغو : تطور التعلم الإسلامي في غرب أفريقيا، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة، شعبة الحضارة الإسلامية، المعهد العالي لأصول الدين، جامعة الزيتونة، تونس، 2001م، ص85.

(10) نفس المرجع ، ص88.